فى الأدب العربى الحديث

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

عنى الباحثون فى الآداب الغربية من الإفرنج فى العصور الأخيرة باتجاهات الأدب العربى الحديث من سبل التحقيق العلمى ووسائل الدرس الفنية ؛ وسرعان ما ظهرت عناية هؤلاء الباحثين فى الدراسات والمباحث التى قاموا بنشرها فى السنين الأخيرة فى مختلف اللغات الأوربية عن الأدب العربى الحديث . وخير هذه الدراسات الفصول القيمة التى يكتبها المستشرق الألمانى الكبير « كَارْلْ بْرُوكلْمَانْ » فى « ملحق تاريخ الآداب العربية » وقد صدر منها أخيراً جزآن عن الشعر المصرى فى العصر الحديث . غير أن ساحة الآداب العربية الحديثة (رغم هذه الدراسات) لا تزال غير مطروقة فى جميع نواحيها بالبحث ، والنواحى التى طرقت منها لم تتعد دائرة رسم الاتجاهات العامة والخطوط الأساسية . لهذا كانت الحاجة ماسة لدراسات مستفيضة عن الأدب العربى الحديث من طرق التحليل العلمى وسبل التحقيق الذى درج عليه الباحثون فى تاريخ الآداب ووسائل الدرس الفنية

وتحت تأثير هذه الحاجة ومعرفتنا للغة العربية التى حصلنا عليها لظروف عائلية بين تركيا ومصر اندفعنا إلى دراسة الأدب العربى الحديث فى اتجاهاته وأعلامه فى دراسات مفصلة ، ظهرت آثارها فيما نشرناه منذ عام ١٩٣٦ فى اللغات الألمانية والروسية والتركية والإنجليزية والعربية . وكان أن رغب إلىّ بعض الزملاء من أدباء العربية أن أنشر دراساتى فى اللغة العربية لفائدة الناطقين بها من جهة ، ولإمكان استفادة كل الباحثين من المستعربين الإفرنج فى آداب العرب من جهة أخرى ، مما لا يتحقق فائدته على نفس الوجه فى الكتابة فى لغة من اللغات الإفرنجية التى يجرى قلمنا بها

وتحت تأثير رغبة هؤلاء الزملاء وتشويقهم ، لخصت جانباً من دراستى التحليلية التى كتبتها فى الألمانية عن « شاعر العراق الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى » ونشرتها بالعربية كما ترجمت بحثى عن الأستاذ الدكتور « طه حسين » ومضيت أتبع دراسة عن الأديب الكبير « توفيق الحكيم » صدرت فى الشهر الثالث ثم انثنيت أدرس الأديب الشاعر « خليل مطران » وأتبع دراسة مفصلة عنه ، تكفلت بنشرها متتابعة مجلة « المقتطف » شيخة المجلات العربية . وحدث أن عرضت فى الفصل الثالث من دراستى للطريقة التى استحدثها خليل مطران فى نظم الشعر ، وتناولت بالكلام العام الأثر الذى تركه مطران بمحاولته التجديدية فى جيل من الأدباء الذين نشأوا فى عصره وقلت فى معرض الكلام ما نصه :

« على أن الأثر — أعنى الأثر الذى استحدثه مطران — توضح واستبان فى العقد الثانى من قرننا هذا ؛ إذ ظهر فى مصر شاعران كبيران هما : أبو شادى وشكرى . ثم ظهر فى أواخر الحرب خليل شيبوب الذى ينفرد من بين كل المتأثرين باتجاهات مطران بأنه لا يزال إلى يومنا هذا أميناً للعناصر التى يقوم عليها مذهب الخليل فى نظم الشعر . وهو فى ذلك عكس زميليه أبى شادى وشكرى اللذين استقلا بمذهب لهما فى قول الشعر مع الزمن ، وإن كان مذهبهما يتقوم على أساس من مذهب الخليل ، فعبد الرحمن شكرى كان ذهابه لانجلترة سبباً لوقوعه تحت تأثير المذهب الطبيعى الإنجليزى ، وكان أن تغلبت عليه نزعة من التشاؤم نتيجة لعوامل تتصل بنفسه . فاستقل بمذهب فى الشعر يقوم على أساس التأمل والتفكير الخصب الذى يحاشى الشعور العميق الذى يشوبه مسحة من الكآبة ... »[1]

غير أن هذه السطور رغم ما تنطق من عظيم التقدير لأدب الشاعر الجليل « عبد الرحمن شكرى » فإنها لم ترضه . فكتب فى المقتطف وفى الرسالة ، وعاود الكتابة فيها يناقش مطالعاتنا مقرراً براءة شعره من أثر مطران مبدياً التذمر من نسبتنا نزعة التشاؤم له ، محللاً رأينا أنه وقع تحت تأثير المذهب الطبيعى الانجليزى أكثر مما يحتمل !

وكان بودى أن أصحح الموقف عقب الكلمات الأولى التى كتبها الأديب الفاضل شكرى ، ولكنى لست أملك من وقتى ومجهودى ما يملكه هو حتى أبادر إلى التصحيح فى حينه ، فليعذرنى لهذا وهو خير من يتفهم الأعذار

(١) المقتطف م ٩٤ ج ٣ ص ٢٠٦ سنة ١٩٣٩

وقبل كل شيء يستحسن أن أحدد نقطة الخلاف الأساسية . فأنا أقول إن خليل مطران استحدث فى الأدب العربى أسلوباً جديداً فى النظم يقوم على أساس قول الشعر باعتبار وحدة الشعور وإطراد الخواطر وتسلسل المشاعر واتساق المعنى . وأظن أن الشاعر الفاضل عبد الرحمن شكرى لا يختلف معى فى هذه القضية . ثم إنى أقول إن مطران أثر فيمن جاءوا بعده من الشعراء ، وأقرر أن هذا التأثير بدا بصورة قوية عقب ظهور ديوانه عام ١٩٠٨ ، وهذا التأثير يعترف به على شعره الدكتور أبو شادى والدكتور ابراهيم ناجى كما يعترف بذلك الشاعر الفاضل خليل شيبوب . وهناك روايات مستفيضة ترددت نحو ثلاثين سنة فى المجلات والصحف الأدبية فى مصر وسوريا ولبنان والمهجر ناطقة بأثر مطران التوجيهى فيمن أتوا بعده من الشعراء المجددين فضلاً عن أثره فى بعض معاصريه من شعراء العربية الأعلام ، وهذه الروايات تحمل فى تضاعيفها فكرة تأثر شكرى بمطران ، وهى حين تتكلم عن هذا الأثر لا تتكلم عن تأثر شكرى بأخيلة مطران وعبارته ، وإنما تتحدث عن تأثره بطريقة مطران فى النظم : وحدة فى الشعور واطراد فى الخواطر وتسلسل فى المشاعر واتساق فى المعانى تترسل بضبط وتتمشى بإحكام فى مختلف أجزاء القصيدة أو المنظومة

وإذاً يكون كل تفسير من شاعرنا الجليل يخرج الكلام عن حقيقته وإنكار للواقع لا نرضاه من أديب مثله .

هذا وأنا بصفتى مستعرباً — ويلاحظ هذا أدبينا الفضال جيداً — مهتم بدراسة الأدب العربى فى اتجاهاته وتطوراته ، ومناحيه ، وفى أعلامه ، أتخذ طريقة من البحث منهجية ، أمزج فيه التحقيق بالافتراض ، والاستقراء بالتخيل ، فأتناول بعض الأشياء تناولاً حدسياً Intuitive — أو قل أولياً a priori لأن التحقيق فى كل نوع غير مستطاع . لهذا أقف فى بعض النقط من دراساتى عند مجمل الشيء دون أن أنزل إلى تفاصيله تاركاً التفصيل والتحقيق لواقف أخرى . ومن المعروف فى الأساليب المنهجية أن طريقة الحدس فى الدرس ترجع إلى مراجعة سريعة للمبادىء والانتقال دفعة واحدة منها إلى النتائج دون وقوف طويل ولا تحقيق مستفيض فى الحلقات الوسطى . وأنا لم أخرج فى بحثى عن تأثر شكرى بمطران عن حكم هذا النهج ؛ فكل المراجع تقرر أن شكرى من المجددين كأقرانه تأثر بمطران . وليس فى استطاعتى مخالفتها إلا بتحقيق ، لأن البحث عن مطران والتحقيق غير مستطاع . لهذا أخذت كلام المراجع قضية أولية فى مثل هذا الموضوع الفرعى الذى لا يمكننى أن أستقصيه إلا وأنزل لدقائقه وتفاصيله ، والبحث لا يستلزم منى كل هذا ، ولكن للتثبت من صحة هذه القضية الأولية اكتفيت أن أنتقل إلى نتائجها الأخيرة ، أتحقق من وحدة الطريقة عند مطران وشكرى ؛ ومراجعة سريعة لديوان مطران ودواوين شكرى لا تضع مجالاً للشك فى هذه الحقيقة . والفروق الممكن وجودها ترجع إلى الاختلاف فى الشخصية والأصل الثابت فى طبيعة كل منهما كفردين تقوّم كل منهما بشخصية أصيلة . وعند هذا الحد وقفت على أن أعود إلى الموضوع أحققه فى تفاصيله ودقائقه فيما كنت أريد أن أكتبه عن شكرى من دراسة .

على هذا الوجه تتضح المقدمات الأولية فى بحثنا التى جعلنا نقدر تأثر شكرى بمطران . ويتبين من ذلك أنه ليس هنالك فى فكرنا ما يتوهمه الشاعر الفاضل شكرى من تقليل من شأنه ، وأنه لم يدر بخلدنا أن ننتقص من أمره فى كلامنا ؛ وأن بحثنا مستقيم من مناهج البحث القويمة ، لا ضعف فى التخريج ولا تهافت فى الرأى ولا قصور فى النظر إلى جوانب الموضوع كما راح يغمزنا ويغمز دراستنا الأديب الفاضل

* * *

يقيت مسألة تتفرع من فكرة تأثير مطران فى جيل من الأدباء الذين عاصروه أو جاءوا بعده . وهذه المسألة تقوم على أساس تفهم وجه التأثر ؛ فقد يكون التأثر بشعر مطران ، وقد يكون بالأثر الذى تركه مطران فى المحيط الأدبى . أما عن الوجه الأول فذلك يكون إما باحتذاء مطران فى طريقته كما هو الحال عند شيبوب ، أو التأثر بالطلاقة الفنية عند مطران كما هو الحال عند أبى شادى ، أو التأثر بجوشعر مطران وأخيلته كما هو الحال مع إبراهيم ناجى . وهذه الحالات كلها وإن تباينت فيما بينها ، إلا أنه يجمعها شىء واحد هو التأثر المباشر بشعر مطران . أما عن الوجه الثانى فبيان ذلك فى مجاراة النسق الجديد الذى أتى به مطران ؛ نزولاً على أحكام الجو الأدبى والبيئة الفنية التى تطمئن بمحاولات الخليل

التجديدية . ومثل هذا واضح فى محاولات أحمد شوقى فى إقامة طور جديد من الشعر فى الفترة التى جاءت عقب الحرب العظمى . ولا يعترض علينا بأن الحاجة كانت ماسة لهذه الضروب من الشعر نزولاً على أوضاع الحياة الجديدة التى دفع إليها المجتمع الشرقى . لأن روح التردد والإحجام عن استحداث مثل هذا الحدث كان يسود الجميع . فضلاً عن أن الشخصية التى تتقوّم بأوضاع الحياة الجديدة على وجهها الجديد وتمثلى حاجة العصر لم تكن وجدت ، لأن الجميع كانوا تحت تأثير سريان الشعر القديم . ولا شك أن العصر من حيث أدرك نفسه فى شخص مطران الرائد الأول لحركة التجديد فى ميدان الشعر فى الأدب العربى ، مثّل الجو الأدبى لوناً وجعله يتطلع بصورة جديدة : تلك التى نطالعنا من حركة الجديد اليوم

ولا شك عندى فى أن حذق الخليل وتمايله على جود عصره هو الذى مكّن أقدام الشعر الجديد . عناية مطران بأن يكسو شعره ديباجة عربية خالصة ، واتخاذه الأغراض الاجتماعية التى تدور عليها الحياة فى عصره ، هى التى جعلت الناس تتشرب الجديد ولا ترى غضاضة فى تذوق أخيلته ومعانيه المستحدثة . والحق يجب أن يقال إنه لولا مطران لما كان لنا أن نرى اليوم تلك المحاولات التى قام بها الشعراء المجددون من شعراء الثقافة الحديثة فى مصر

وعلى هذا لنا أن نفهم مناحى تأثير مطران فى جيل من الأدباء الذين عاصروه والذين أتوا من بعده ولحقوه . وعلينا لكى ننصف التاريخ الأدبى أن نقدر كل ذلك ، وفى ضوئه نصدر أحكامنا ونملى مطالعاتنا عن الأدب العربى الحديث

وقد حاول الشاعر الفاضل عبدالرحمن شكرى فى مقاله بالمقتطف أن يخرج بالموضوع عن دائرته الحقيقية إلى بحث فى العوامل التى أثرت فى نفسه فقومت شخصيته على النمط الذى يظهر من مطالعة شعره . ولست براغب فى نقاشه فى المسائل التي ذكرها ، لأنها من أمس الأشياء بذاته وشخصه ، والإخلاص الأدبى يضطرنا إلى تصديقه فيها . ولكن كل الذى أرغب أن أقدره هنا أنه كشف بما كتب عن العوامل التى أثرت فى نفسه فجعلته يميل لقرض الشعر ؛ إلا أنها لا تبين الأدوار التى مر بها حتى قومته على النمط الجديد الذى يظهر من مطالعة شعره فى الدواوين الأخيرة ، وفى بعض الأجزاء من روايته الأولى ، ولا شك أن شاعرنا لا يعتقد أن شخصيته الأدبية وصحت واستقامت من الأدب القديم بدون أن يكون للتجديد أثر عليه . فصحيح أن الأستاذ شكرى تأثر بشعراء الصنعة العباسية وبشعر العرب القديم وبشعر البارودى فى الطور الأول من حياته الأدبية ، وذلك على الوجه الذى أشار إليه فى مقاله الأخير بالمقتطف ؛ على أن ما استقامت به شخصيته من نمط جديد لا أظنه ينكره ، وهذا النمط هو الذى يعنينى ويعنى كل باحث فى تصرف شاعريته

ونحن نعتقد أن فى إمكانه أن يخرج المسألة تخريجاً يوافق دعواه التى يدّعيها ، ويقول إن ما ظهر به من نمط جديد إنما يرجع لارتياضه فى دواوين الشعر الأوربى ، ولكن لكى نصحح هذه القضية يجب على شاعرنا أن يثبت عدم تأثره بمطران فى الوجهين المباشر وغير المباشر . وهو يستطيع أن يزعم أنه لم يقرأ مطران وأنه لم يتأثره ؛ ولكن لا أظن أن فى إمكانه أن ينفى عن نفسه تأثره بالجو الذى استحدثه الخليل فى الحياة الأدبية

فى إمكان شاعرنا الفاضل أن ينفى بصيغة البات ، ولكنه لا يقنع بذلك أحداً من الذين تقومت لهم شخصية فى دراسات التاريخ الأدبى

وأظن أنى بهذا المقال أوضحت الموقف وأجليت الفكرة دون تكران للواقع أو انتقاص لمكانة شاعرنا الجليل عبد الرحمن شكرى فى عالم الأدب الحديث . وليطمئن الأستاذ فإنى فى طليعة المعجبين بشعره والمناصر الأدبية والفنية الطيبة التى يتميز بها شعره ، وعبارتى فى المقتطف عنه ناطقة بهذا الإعجاب : « شعر يقوم على أساس التأمل العميق والتفكير الخصب الذى يغاشى الشعور العميق » . أما حديث التفاؤل والتشاؤم فله مقال آخر

(أبو فهر) إسماعيل أحمد أدهم

ليلى المريضة فى العراق

كتاب يفصل وقائع ليلى بين القاهرة وبغداد من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٨ ، ويشرح جوانب كثيرة من أسرار المجتمع وسرائر القلوب فى مصر والشام والعراق .

يتم فى ثلاثة أجزاء وثمن الجزء ١٢ قرشا

ويطلب من المكتبات الشهيرة فى البلاد العربية